مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: XX عدد: XX السنة: 2019
ص: 129 - 138 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الكتابة السردية بلغة الآخر، هل هي خطيئة في حق الهوية ؟

Narrative Writing in the other 's language : is it a sin against the identity ?

بوبكر بن عبد السلام [1]* ، د. جلال خشاب [2]

Boubakeur Benabdessalam[1] Jallal Khechab[2]

جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي

University of Oum El Bouaghi

تاريخ الإرسال: 2018/12/28	تاريخ القبول: 2019/06/03	تاريخ النشر: 2019/09/25

ملخص البحث

إن الازدواجية اللغوية التي طبعت الأعمال الأدبية الجزائرية انطلاقا من عشرينيات القرن الماضي، كان مردها بالأساس إلى مجموعة من العوامل التاريخية والثقافية والاجتماعية، خلفتها بالدرجة الأولى المرحلة الاستدمارية، وقد أسهمت هذه العوامل مجتمعة، في تكريس لغة المستعمر كلغة وحيدة للكتابة الأدبية والإبداع، في ظل الغياب القسري للغة الأهالي، و هذا ما يقودنا حتما الى طرح التساؤل التالي: إلى أي مدى يمكن للعامل اللغوي أن يتحكم في هوية النص الأدبي ؟

الكلمات المفتاحية: الرواية ؛ الهوية ؛ الهجنة؛ الفرنكفونية ؛ الانتماء.

Abstract :

The linguistic duality that carved the Algerian literary works departing from the 20'S of the last century is mainly due to a set of historical, cultural and social factors caused chiefly by the colonial era. Those factors altogether, took part in imposing the language of the colonizer as the solely one for literary creative writing while the indigenous people's language was savagely repressed which leads us to wonder: how far can the linguistic factor take control over the identity of the literary text ?

Key words : Novel, Identity, Hybridism, Francophone, Belonging

* بوبكر بن عبد السلام ben.boubakeur@hotmail.fr

توطئة

يتعذر على أي دارس للأدب أو باحث في أحد مجالاته، عزل هذا الأخير عما يعيشه المجتمع بمختلف تمظهراته الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها، حتى وإن غالى هذا الأدب في الجنوح إلى التخييل والرمز، وابتعد عن الطرح الواقعي، فإنه يظل تواقا إليه.

إن الأدب مرآة لكل زمان ومكان، إنه محاولة لخلخلة التاريخ وتفكيكه، ومن ثم إعادة بنائه، إنه يقظة للشعور الفردي والجمعي، كما أنه كذلك الحامي للأمة في كينونتها الوجودية والمعبر عن انتمائها والحامل لهويتها، ومن هنا تطرح إشكالية هوية الأدب، خاصة بالنسبة لتلك الأمم و الشعوب، التي رضخت لفترة من الزمن تحت قهر الاستدمار، وما نتج عن ذلك من تبعات ألقت بظلالها على الإنتاجات الأدبية والفكرية لهذه الأمم وتلك الشعوب .

وقد تعددت الآراء وتباينت حول العناصر المشكلة لهوية العمل الأدبي، بقدر ما اختلفت في تحديد عناصر الهوية بشكل عام، لكنها أجمعت كلها تقريبا على اعتبار اللغة عنصرا أساسيا من العناصر المشكلة للهوية، كما " و تعد ناقلا ممتازا للثقافة عبر الأجيال و العصور، بيد أن هذا الدور المهم الذي تقوم به اللغة في تشكيل الهوية الثقافية، لا يعني بتاتا أنها العامل الوحيد والحصري في بنائها. ونجزم أنه يكاد يكون من المستحيل في عالمنا العثور على شخص استثنائي، يمكن أن يعرف بالانتماء إلى مجموعة ثقافية ولغوية وحيدة "[1]

أولا- الكتابة بلغة الآخر أو الظاهرة القديمة الجديدة.

تعد ظاهرة الكتابة بلغة الآخر- بالرغم من الجدل الذي كثر من حولها في الدوائر الأدبية المغاربية، وبخاصة في الوسط الأدبي الجزائري – تيمة ليست بالجديدة ولا بالمحدودة جغرافيا، فقد ظهرت أسماء عديدة في الساحة الأدبية ، وظفت لغة الآخر في مجال الإبداع الروائي تحديدا، لأسباب يعزى بعضها إلى الظروف التاريخية التي حتمت على المستعمر استعمال لغة المستعمر، والتي عدها "تودوروف" سببا من أسباب التمكين لأي مشروع كولونيالي، والبعض الآخر قد يصنف في خانة الخيارات الشخصية (البحث عن العالمية، تجاوز الطابوهات والمحظورات،الهروب من القيود التي تفرضها الكتابة باللغة العربية، إيجاد فضاءات أرحب للتعبير، إمكانية الخوض في التيمات المسكوت عنها...).

وقد ظهرت أسماء عديدة في الساحة الأدبية العالمية، وظفت لغة الآخر في المجال الروائي تحديدا، أذكر من بينها الروائي الإنجليزي البولندي الأصل "جوزيف كونراد" Joseph conrad ، صاحب الرواية الشهيرة "قلب الظلام" Au cœur des ténèbres، والذي تحول للكتابة باللغة الإنجليزية، و الشاعر الفرنسي من أصل بولندي "غيوم أبولينير" Guillaume Apollinaire صاحب ديوان " كحول "، والروائي الروسي الأصل "فلاديمير نابوكوف Vladimir Nabokov ، مبدع رائعة "لوليتا" Lolita، الذي كتب باللغتين الروسية والإنجليزية، والروائي والكاتب المسرحي الايرلندي"صموئيل بيكيت" Samuel-Beckett، الذي كتب جزءا كبيرا من أعماله باللغة الفرنسية ، وهو ركن ركين ورمز بارز من رموز تيار مسرح العبث، وكذا الروائي الفرنسي من أصول تشيكية "ميلان كونديرا" Milan Kundera، الذي انتقل للكتابة من اللغة التشيكية إلى اللغة الفرنسية سنة 1925، والروائي التشيكي الأصل "فرانتز كافكا" Frantz Kafka الذي تحول هو الآخر للكتابة باللغة الألمانية.

أما في عالمنا العربي، فكثيرة هي الأسماء التي جعلت من لغة الآخر هي لغة الكتابة والإبداع الأدبي، لعل أبرزها الروائي اللبناني "أمين معلوف" ذو الثقافة المتنوعة والمرجعية الأيديولوجية المزدوجة (المسيحية والإسلامية)، الذي كتب بالفرنسية رغم تمكنه من ناصية اللغة العربية، و الذي كثيرا ما تناول في أعماله تيمة الهوية والاغتراب خاصة في مؤلفه الشهير باللغة الفرنسية " الهويات القاتلة " Les identitées meurtrières، والأديب المغربي "إدريس الشرايبي" (1926-2007)، الذي يعتبر أحد أشهر رواد الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية، والكاتب التونسي "منصور مهني" (1950)، الذي يقول عنه الباحث التونسي "نزار بن سعد" : "يلتزم الكاتب التونسي "منصور مهني"- الذي نشاركه الرؤية والذي كثيرا ما نستند على أفكاره - هو الآخر بهذا الحوار البناء من خلال اهتماماته الخاصة بالمفهوم الحيوي للهوية الثقافية، وكذا اللغة كمكون للهوية. وقد أتاح نشره لمؤلفه " التحول الأدبي المغاربي" آفاقا ملفتة وواسعة للقراءة، وتشكل المداخلات التي يحويها جملة ذات وحدة متينة شكلا ومضمونا، تمثل أهمية قصوى بالنسبة للإشكالات المتعلقة بوضع اللغة، وكذا بقيم الهوية التي ترتبط بها"[2]

« L'écrivain tunisien, Mansour M'Henni, dont nous partageons l'analyse et sur lequel nous nous appuierons beaucoup, s'engage lui aussi dans ce dialogue constructif, à travers ses préoccupations concernant surtout la notion dynamique de

مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: XX عدد: XX السنة: 2019
ص: 129 - 138 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

l'identité culturelle, la langue comme constitutive de l'identité. Ainsi la publication en 2002 de son ouvrage – de la transmutation littéraire au Maghreb – nous offre des perspectives de lecture des plus amples et des plus interpellatrices. Les communications qui y figurent constituent un ensemble dont l'unité, de fond comme de ton, est frappante, ellesprésentent un vif intérêt quand aux problèmes liés au statut de la langue, ainsi qu'aux valeurs identitaires qui s'y attachent »

إن الكتابة باللغة المستعارة La langue d'emprunt، مسألة كثيرا ما يحتدم حولها الجدل في الساحة الأدبية المغاربية ، وفي الجزائر على وجه الخصوص، باعتبار اللغة عنصرا مهما من عناصر تشكل الهوية الوطنية، ورمزا قويا من رموز الانتماء القومي، يقول في هذا الشأن الفيلسوف الألماني، صاحب كتاب الزمن والوجود، "مارتن هايدغر" Martin Heidegger: "إن لغتي هي مسكني، هي موطني و مستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالم تضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع"[3]

إن الكتابة بلغة الآخر، خاصة إذا كان هذا الآخر مستعمرا أو بالأحرى مستدمرا، يعده الكثير من الباحثين والمثقفين مثارا للتشكيك في الانتماء القومي، لهذا نجد أن البعض من كتاب ما بعد الكولونيالية يدعون إلى التخلي عن الكتابة بلغة المستعمر، والعودة إلى اللغة الأم وهو ما فعله الكاتب الكيني "نجوجي وايثونجو"، فيما تمسك ثالوث الدراسات ما بعد الكولونيالية المشهور، الأمريكي من أصول فلسطينية "إدوارد سعيد" والأمريكيين من أصول هندية "هومي بابا" و "غياتري سبيفاك"، بالكتابة باللغة الإنجليزية ، وفي هذا المعنى يقول "أمين معلوف" في مؤلفه الذي سبقت الإشارة إليه (الهويات القاتلة) : "فحيث يشعر الناس أنهم مهددون في عقيديهم، يبدو أن الانتماء الديني هو الذي يختزل هويتهم، ولكن لو كانت لغتهم الأم ومجموعتهم الإتنية هي المهددة لقاتلوا بعنف ضد إخوتهم في الدين"[4]

استمرت هذه الظاهرة الأدبية حتى بعد أن انحصر المد الاستعماري، ونالت غالبية دول العالم الثالث استقلالها، وقد ورث جيل من المثقفين المغاربة الكتابة بلغة المستعمر، بالرغم من المتغيرات الكثيرة التي طفت على الساحة الثقافية والأدبية تحديدا، وعودة الروح للغة العربية من خلال ايلائها مكانة رفيعة باعتبارها المكون المركزي للهوية الوطنية، وقد واصل البعض من جيل الاستقلال الإبداع بلغة الآخر مع تمكنه من فعل ذلك بلغته الأم، يقول الباحث و الأكاديمي الجزائري الطيب بودربالة تعليقا على هذا الموضوع :

"تجدر الإشارة أيضا إلى ظاهرة مستجدة في الساحة الأدبية المغاربية، وهي إتقان بعض الروائيين للكفاية اللغوية المزدوجة : اللغة العربية واللغة الفرنسية على السواء، عبد الكبير الخطيبي، عبد اللطيف اللعبي، والطاهر بن جلون من المغرب، عبد الوهاب مدب والطاهر بكري من تونس، ورشيد بوجدرة من الجزائر، الذين يمتلكون ثقافة مزدوجة، الشيء الذي يمنح لممارساتهم التناصية بعدا كونيا، ومتعدد الثقافات. إن هؤلاء الروائيين المزدوجي اللغة (أو بالأحرى ثلاثيي اللغة) يتوسلون اللغة الفرنسية تجنبا للطابوهات ولمقص الرقيب، وسعيا لنشر أعمالهم في فرنسا، أين يتواجد متلقون مغاربيون، أو فرنسيون من ذوي الاهتمامات المغاربية، الذين يتابعون مواضيع الساعة المغاربية، الثقافية منها والسياسيةبشكل دائم"[5].

« On notera aussi un fait nouveau dans la littérature maghrébine, qui est la maitrise chez certains romanciers de la double compétence linguistique:l'arabe et le français. Khatibi, Laabi, Bendjelloun au Maroc, Meddeb et Bekri, en Tunisie, et Boujedra, en Algérie, possèdent tous la double culture, ce qui confère à leurs pratiques intertextuelles une dimension pluriculturelle, et planétaire . Ces romanciers bilingues(ou plutôt trilingues) préfèrent écrire en français pour contourner les tabous, la censure, et aussi pour se faire publier en France ou un important lectorat formé de Maghrébins et de Français attentifs aux réalités maghrébines, s'est toujours intéressé à l'actualité " culturelle et politique maghrébine ».

ثانيا– السياق التاريخي للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

تعود بدايات التجربة الروائية في الجزائر إلى العهد الاستعماري، حيث ظهرت أول ما ظهرت أعمال روائية باللغة الفرنسية في عشرينيات القرن الماضي، على يد نخبة من المثقفين الجزائريين الذين تعرفوا على فن الرواية، من خلال المستعمر ولغته التي كانت هي السيدة في المدارس المنتشرة في مختلف ربوع البلاد، والمتربعة على عرش التعليم والتعلم آنذاك، وبذلك تكون الرواية المكتوبة بالفرنسية هي صاحبة السبق والتميز على مستوى الكتابة الروائية في الجزائر.

وقد مثل هذه النخبة من المثقفين والأدباء، بعض ممن كانوا يشغلون مناصب سامية في الإدارة الاستعمارية، وهم مثقفون مشبعون بالثقافة الفرنسية، فجاءت أعمالهم الأدبية مزيجا من التعبير عن حياة الأهالي بجميع تمظهراتها، والتعبير في الوقت نفسه، عن الارتباط الأبدي بالدولة الفرنسية، وقد أسسوا بذلك لما بات يعرف بالأدب الاندماجي« la littérature assimilationniste »

كما أشار الكثير من النقاد والباحثين إلى أن هذه الأعمال الروائية، يمكن تصنيفها ضمن خانة"الروايات الأطروحة""Les romans à thèse"بسبب توجهها الاندماجي الذي عمل على تمجيد الدولة المستعمرة، لأسباب قد يكون لها ما يبررها في تلك المرحلة التاريخية (وقد يكون حرصهم على المساواة بين المعمرين والأهالي، الذي قد يمكنهم من انتزاع بعض الحقوق، وبالتالي الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية من لغة ودين، هو أحد هذه المبررات)، وبهذه الأعمال الروائية التي لم تكن ذات جودة فنية عالية، تكون الرواية الجزائرية قد وضعت لنفسها موطأ قدم في الساحة الأدبية الجزائرية

وقد انحصرت هذه الأعمال من الناحية التاريخية بين الحربين العالميتين، في حين يرى الباحث والأكاديمي "عبد القادر جغلول" أن أول بزوغ لهذا الأدب كان قبل ذلك، مؤسسا له بظهور رواية " مسلمون و نصرانيات " Musulmans et Chrétiennes لـ" بوري أحمد " سنة 1912.

أما عن الجو العام الذي خيّم على أعمال هذه الفترة، خاصة الروائية منها،فكان غرائبيا قوامه الأساطير، والحكايات، والخرافات المستوحاة من الموروث الشعبي، وتجلى ذلك مبدئيا من خلال أسلوب الكتاب في العنونة (مريم بين أشجار النخيل لسليمان ولد الشيخ، زهراء إمرأة المنجمي لعبد القادر حاج حمو، مامون مشروع مثل أعلى لشكري خوجة...).

وقد تلت أعمال جيل ما بين الحربين، أعمالأخرى لروائيين آخرين (محمد ذيب، مولود فرعون، كاتب ياسين، مولود معمري...)، انخرطوا بدورهم في الكتابة بلغة المستعمر، فعبروا عن أنفسهم بأنفسهم، دون الحاجة لمن يكتب أو يتكلم عنهم بالوكالة، لكنهم وعلى عكس سابقيهم من الجيل الأول، سرعان ما فكوا الارتباط بالدولة المستعمرة، فأسسوا بدورهم لأدب أعاد النظر في مقولة الجزائر الفرنسية، أطلق عليه النقاد فيما بعد، أدب الاحتجاج والرفض littérature du refus et de la contestationLa ، لكن المفارقة هنا، تكمن في أن هذا الجيل الثاني من الأدباء الذين كتبوا باللغة الفرنسية، لم يسلم هو الآخر من النقد اللاذع، وصولا إلى حد التشكيك في تمثل أدبه للهوية الوطنية والالتزام القومي .

فإذا كان الجيل الأول من رموز هذا الأدب قد انتقدوا ورفضوا لما تحويه كتاباتهم من صبغة اندماجية، فإن الجيل الثاني، وعلى الرغم من أن أدبه كان ينبض بالنزعة الثورية والروح الوطنية،

اللتان كانتا تطبعان جل إبداعاتهم الأدبية والروائية تحديدا، والتي وصل البعض منها إلى مصاف "العالمية"، فإن جنوحهم للكتابة بلغة المستعمر، للتعبير عن انتمائهم وتمثل هويتهم وكذا التزامهم بقضايا أمتهم — حتى وإن كان هذا الأمر يبدو حتميا من الناحية التاريخية – كان كافيا لإثارة إشكالية كبرى، كانت مثارا للجدل وما تزال.

تناول أدب هذا الجيل المؤسس بجميع أجناسه مجموعات شعرية ، أم قطعا مسرحية أم أعمالا روائية، الواقع البائس الذي كان يعيشه الأهالي، وعبر عنه تعبيرا صادقا، ودافع في الوقت نفسه عن هوية الشعب الجزائري وانتمائه، يعلق الباحث "نور سلمان" على ذلك بقوله : " عالج القصاصون التمزق النفسي، والاجتماعي، والفكري الناجم عن الأوضاع المتناقضة التي سببتها الغربة، والتصادم بين حضارتين مختلفتين، أذكر منها على سبيل المثال رواية مولود فرعون "الدروب الصاعدة"[6]وفي نفس هذا السياق يقول الباحث الجزائري قجيبة عبد الناصر:

"جرت العادة على نسبة أدب بلد ما إلى لغته الوطنية، لكن هل الأدب الذي كتب بهذه اللغة هو وحده الذي يمكن تصنيفه في خانة الأدب الجزائري؟ ماذا إذا عن الأدب الذي، وإنكان كتب بلغة الآخر، إلا أنه لم يساهم في تشكل الوعي الوطني في معظمه فحسب، وإنما سمح أيضا بإسماع صوت الأمة في المحافل الدولية، إنه حال اللغة الفرنسية في بلدنا تقريبا ".[7]

« On a coutume de lier la littérature d'un pays à sa langue nationale. Mais faut-il reconnaître, comme littérature algérienne, uniquement, celle rédigée dans les langues autochtones du pays ? que dire alors de cette littérature, certes, écrite dans la langue de l'autre, mais qui, dans la plupart des temps, a, non seulement, largement contribué à la prise de conscience nationale, mais elle a permis aussi à la nation de se faire entendre fastueusement à l'échelle mondiale, c'est un peu le cas du français dans notre pays »

يحاول الباحث من جهة أخرى أن يضعنا في صورة الوضع الحقيقي للغة الفرنسية في الجزائر، والخصوصية التي تحظى بها هذه الأخيرة في هذا البلد، يقول عن ذلك :

"تحظى اللغة الفرنسية في الجزائر، من بين كل بلدان المغرب العربي، بوضع خاص، وهذا الوضع الذي يصنفها في دائرة اللغات الأجنبية، لا يعدو أن يكون تصنيفا سياسيا صرفا، أليست اللغة الفرنسية هي لغة الصحافة والتعليم والإدارة ؟ بل أكثر من ذلك، لقد ساهمت اللغة الفرنسية وما تزال، في إثراء الساحة الأدبية الجزائرية"[8]

« Parmi tous les pays du Maghreb, le français en Algérie présente une particularité quelque peu spécifique,il n'a de statut de langue étrangère que politiquement : le

français n'est-il pas la langue de la presse, de l'enseignement et de l'administration… ? plus encore, le français, depuis près d'un siècle, n'a pas cessé d'enrichir l'arène littéraire algérienne. »

ثالثا– الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية: الأزمة.

عاش الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أزمة في تمثل الهوية، وقد صاحب ذلك إشكالية في تصنيفه، أهو جزائري أصيل ؟ أم فرنسي المرجعية الفكرية ؟ أم أدب هجين ؟

و قبل الخوض في هذه الإشكالية، تجدر الإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى هذه الازدواجية اللغوية، والتي مردها بالأساس إلى مجموعة من العوامل التاريخية والثقافية والاجتماعية، خلفتها بالدرجة الأولى المرحلة الاستدمارية، وقد أسهمت هذه العوامل مجتمعة، في تكريس لغة المستعمر كلغة وحيدة للكتابة الأدبية والإبداع، في ظل الغياب القسري للغة الأهالي، وهذا ما يقودنا حتما إلى سؤال، سنحاول الإجابة عليه، من خلال هذه الورقة البحثية، وهو إلى أي مدى يمكن للعامل اللغوي أن يتحكم في هوية النص الأدبي ؟

ولمقاربة هذا التساؤل، الذي ما يزال يلقي بظلاله إلى اليوم، سأنتقي آراء بعض النقاد والباحثين في هذا المجال، وسأقتصر على باحثين أكاديميين جزائريين، وآخرين فرنسيين.

أ – عبد الله الركيبي : يقر"عبد الله الركيبي" بعدم وطنية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ويقول في هذا الشأن : " فليس هناك أدب كتب بلغة أجنبية واعتبر أدبا وطنيا، ومن هنا فإن إطلاق مصطلح " الأدب الفرنكوفوني في المغرب العربي" هو التعبير السليم عن الحقيقة التاريخية واللغوية والثقافية، والذي يتلاءم مع الأحكام النقدية الموضوعية، لا تلك التي تعتمد على النظرة الذاتية، فهو إذا، أدب فرنكوفوني في غير بيئته الأصلية، مثل أي فرع من فروع الثقافة الأخرى التي كتبت بهذه اللغة، ولا شأن لها بالجغرافيا، وإلا فسينقلب الأمر، وتتغير المفاهيم، وتختلط الأشياء، وينعدم التمايز بين الشعوب والأمم والأوطان"[9].

ميز في المقابل "عبد الله الركيبي" بين الأدب الجزائري الذي كتب أثناء الثورة الجزائرية، وخلال فترة الستينات، حيث اعتبره جزائريا صرفا، لأن الظروف التاريخية في تلك الفترة حتمت عليهم توظيف لغة الآخر(المستعمر) في مختلف أعمالهم ، و هو ما ذهبت إليه الباحثة الفرنسية " جاكلين آرنو" Jacqueline Arnaud :" لقد اضطر الأدباء المغاربة تحت وقع الظروف الضاغطة، إلى

توظيف اللغة الفرنسية كوسيلة تعبير، من أجل المطالبة باستعمال اللغة الوطنية، العربية، أو إلى التذكير بوجود اللغة الأم، البربرية"[10]

« Le choix, par les écrivains maghrébins, de la langue française comme moyen d'expression, leur a été souvent imposé par les circonstances. Ils s'en servis pour réclamer l'usage d'une langue nationale, l'arabe, ou rappeler l'existence de leur langue maternelle, le berbère »

ب – أبو القاسم سعدالله : أما "أبو القاسم سعدالله" فقد ميزبين ما هو جزائري و ما هو قومي، فالأدب الجزائري ذو اللسان الفرنسي جزائري بحكم البيئة التي ولد وترعرع وشب فيها، لكنه ليس قوميا لأن اللغة العربية تشكل ركنا ركينا من أركان القومية العربية، وهذا ما أوضحه بقوله :" وعندي أنه يجب أيضا التفرقة بخصوص هذه النقطة بين وصفين وهما: جزائري وقومي، فالأدب المكتوب بالفرنسية يمكن أن يقال بأنه جزائري على أساس الأرض التي ولد فيها، ولا يمكن في نظري أيضا أن يقال عنه بأنه أدب قومي، إذا كنا نعني بالقومية، الكيان الحضاري للأمة التي تشكل اللغة قاعدة أساسية فيه"[11].

ج – جون ديجو Jean Déjeux : من جهته يعتبر الباحث والأكاديمي الفرنسي "جون ديجو" Jean Déjeux، والذي يعد عراب هذه التيمة بامتياز (الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسي)، أن الأدب المغاربي "La littérature maghrébine" ذو اللسان الأجنبي، لا يخرج عن حيز الأعمال الأدبية المغاربية ، على الرغم من تشبعه بالثقافة الغربية، و يؤكد على هذه الفكرة بقوله:

" يحمل الكاتب باللغة الفرنسية ، أكثر من غيره، بصمة الآخر حتى في كتاباته، لكنه سيظل بالتأكيد وبالرغم من ذلك، ممثلا لمغرب اليوم في ثقافته وتحولاته الاجتماعية وفي تساؤلاته. إنه اعتراف بمغاربية هذا الأدب وتحديد لهويته بدون أي لبس ."[12]

« L'éccivain de langue française plus que tout autre, porte l'empreinte de l'autre jusque dans son écriture, tout en restant, malgré tout et assurément, un représentant du maghreb d'aujourd'hui, de sa culture, de ses changements sociaux et de ses interrogations ».

د – شارل بون Charles Bonn : في حين نجد أن "شارل بون" Charles Bonn وهو ثاني رمز من رموز هذه الدراسات بعد "جون ديجو" Jean Déjeux، قد عمل على نسبة

هذه الإبداعات إلى الأدب الجزائري من خلال قوله بأن لهذا الأدب جمهوره الطبيعي وهو الجمهور الجزائري بالطبع، الذي لم يتقبل كتابة هذا الأدب بلغة المستعمر، هذا الأخير الذي أولى له من جهته هو، عناية كبيرة، لأنه خدم وما زال يخدم اللغة الفرنسية، بتقديمه لها إضافات نوعية من خلال إبداعات رموزه الكثيرة والمتنوعة، يقول "شارل بون " في هذا الشأن:

لم يتقبل الجمهور المغاربي– وهو المتلقي الطبيعي لهذا الأدب – الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية، كونه وظف لغة الآخر في كتاباته، في الوقت الذي ثمنته نظرة الآخر"[13].

« La littérature maghrébine de langue française est à la fois réfusée par son public naturel, parce que se servant d'une langue qui est celle de l'autre, est valorisée peut etre grace au regard de l'autre justement… »

أما إذا أردنا مقاربة هذه الإشكالية من ناحية الدراسات المقارنة، خاصة ما تعلق منها بالمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، فإن هذه الأخيرة تعتبر الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أدبا فرنسيا، على اعتبار أن الأدب في نظر هذه المدرسة ينسب إلى اللغة التي كتب بها، يقول المقارن المصري "محمد غنيمي هلال" ، تعليقا على هذا الموضوع :" والحدود الفاصلة بين تلك الآداب هي اللغات، فالكاتب أو الشاعر إذا كتب كلاهما بالعربية عددنا أدبه عربيا مهما كان جنسه البشري الذي انحدر منه، فلغات الآداب هي ما يعتد به في الأدب المقارن، في دراسة التأثير والتأثر المتبادلين بينهما"[14].

خامسا– إشكالية الترجمة

تعد الترجمة عنصرا مهما، ورافدا من روافد التواصل والتلاقي بين مختلف الأمم و الشعوب، إنها الجسر الذي منه نعبر إلى الآخر، والأداة التي بواسطتها نستطيع مواكبة الحركة العلمية والفكرية والثقافية المتسارعة التي يشهدها العالم، فضلا عن دورها في إغناء مختلف اللغات وإنمائها، لهذا كان لزاما التنبه لمسألة وجوب الوعي بأهمية الفعل الترجمي.

إن الترجمة الأدبية باعتبارها صنفا من أصناف الترجمة، تعد إبداعا جديدا وخلقا آخرا للنص الأصلي، إن إعادة الإبداع هذه، هي "هذا الخلق الغريب تحت رقابة النص الأول، مع فرض حرية ضرورية"[15]

لقدعاش الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية والإبداعات الروائية منه تحديدا، أزمة أخرى في هذا المجال، بعد تلك التي شككت في هويته الوطنية وانتمائه القومي، تمثلت في إشكالية ترجمته إلى اللغة العربية.

فإذا كانت الحيثيات السياسية والتاريخية في مرحلة الاستدمار الفرنسي مانعا من ترجمة الأعمال الأدبية إلى اللغة العربية، فإن مرحلة ما بعد الاستقلال كانت حبلى بتباشير التطور والتغيير والارتقاء، بيد أن الحركة الأدبية أخذت لها منحى جديدا، ركيزته الفصل بين الكتابة باللغة الفرنسية والكتابة باللغة العربية، وهكذا سار هذا الإبداع الروائي في نفقين مختلفين، الأول حاكى الآداب الفرنسية واقتفى أثرها، ناسجا على منوالها، محاولا إثبات تميزه بالمضامين، لكنه ظل أسيرا للغة الفرنسية، غير قادر على الإنعتاق والإفلات من قبضتها، وبالتالي حبيسا للانتماء، أما الثاني فحاول الإسهام بطريقته الخاصة في تطور الرواية العربية.

لقد كان من اليسير جدا الاستفادة من الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية لتطوير تلك المكتوبة بالعربية، من خلال الاشتغال على تفعيل العمل الترجمي إزاء إبداعات الروائيين الأوائل من رموز هذا الفن إلى اللغة العربية، وما ينجر عن ذلك من انتشار النسخ العربية عند شرائح عريضة من القراء بطريقة تمكنهم من الاطلاع عليها بشكل مستمر، وبإعادة النشر كلما اقتضت الحاجة لذلك.

فنحن لم نشهد ملحمتي الإلياذة والأوديسة للشاعر الإغريقي الضرير "هوميروس" و لم نعايش مغامرات دون كيشوت دي لامانشا للإسباني ميغال دوسرفنتاس بلغتيهما الأصليتين ، و لم نعرف أعمال الروائيين الروس أمثال ليون تولستوي(الحرب و السلام، آنا كارنينا...) ولا نيقولاي غوغول (المعطف، تاراس بولبا...) ولا ماكسيم غوركي (الأم، الحضيض) أو ميخائيل شولوكوف (صاحب جائزة نوبل للآداب عن روايته الشهيرة " الدون الهادئ) أو دوستويفسكي(الاخوة كرمازوف) بلغتهم الأصلية ، ولكن الترجمات الفرنسية السائدة عندنا أولا، ثم الترجمات العربية المشرقية التي تلتها، هي التي مكنتنا من التعرف على الأدب الروسي و كذلك الأدب الأنجليزي كأعمال "ولتر سكوت" الذي بدأ حياته شاعرا ثم تعمق في الأدب الشعبي ليتجه بعد ذلك إلى الرواية التاريخية ، أو روايات شارل ديكنز الواقعية التي كانت تدافع في مجملها عن العصر الفكتوري، والقطع المسرحية العبثية مع صمويل بكيت ، والأدب الياباني بلغته الصعبة مع "جونيتشيرو تانازاكي"و"ناتسومي

سوسيكي"، وحضر الأدب الأمريكي بغير لغته ، مع روايات "دوس باسوس" و"جون شتنبك" و"إرنست همنغواي" و"ويليام فولكنر"، كما اطلعنا على الأدب الإيطالي مع "توماسو كامبنيلا" و"ألبرتو مورافيا" و "إيناسيو سيلوني"، ولا ننسى الأدب الألماني مع "توماس مان"، "غنتر غراس" و"فرانز كافكا".

إن الإصرار على تداول إبداعات الروائيين الجزائريين باللغة الفرنسية جعل الهوة تتسع بين المبدعين الجزائريين، وحتى بين المبدعين وجهور كبير من المتلقين المعربين، وعوض أن تتأخر الرواية العربية في الجزائر إلى غاية السبعينيات من القرن الماضي لتعرف أول رواية ذات حبك فني جيد، متمثلة في رواية "اللاز" للطاهر وطار، ورواية "ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة، كان في الإمكان الاستفادة من التجربة الفنية لكتاب الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، وبالتالي يكون تطور الرواية أكثر نضجا من الحالة التي هو عليها الآن.

ولم يقتصر إهمال الفعل الترجمي على روايات الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي فقط، وإنما تم غض الطرف تماما عن الأعمال الروائية التي سبقت هذه الفترة، وهي الروايات التي كتبت ما بين الحربين العالميتين، والتي يعدها بعض النقاد والباحثين باكورة الأعمال الروائية الجزائرية ، روايات لم يكتب لأصحابها معايشة الثورة أو الانضمام إليها، فراح الكثير من مؤرخي الأدب يراهنون على محمد ديب ومولود فرعون ومولود معمري على أنهم رواد الرواية الجزائرية ، ويحددون سنة 1950 على أنه البداية الحقيقية للإبداع الروائي في الجزائر، غير أن الكتابة الروائية سبقت تلك الفترة بحوالي نصف قرن تقريبا.

ظلت جل تلك الإبداعات حبيسة أدراج المكتبات العتيقة، لا يتداولها إلا المتخصصون، ولم تعرف طبعا جديدا منذ صدورها أول مرة ، بينما نجد نصوصا من الأدب الفرنسي والإنجليزي تعود إلى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر يعاد طبعها في حلل بهية ، حتى وإن كانت ضعيفة الحبك وركيكة الأسلوب، فتكفي أهميتها التاريخية لتكون سببا وجيها ومبررا معقولا لنشرها وترويجها.

الخاتمة :

إن تعاطي الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية مع الواقع الجزائري، بوسيلة لغوية أجنبية، أنتج لنا أدبا هجينا – وهذا واقع يجب الإقرار به –، جاء كنتيجة لتفاعل الجسد اللغوي الأجنبي،

مع الروح الجزائرية الخالصة، إلا أن طغيان هذه الروح وهيمنتها على هذا الجسد، جعل الكثير من النقاد والباحثين الفرنسيين، يرفضون تبعية هذا الأدب إلى الأدب الفرنسي.

إن حقيقة الانتماء لهذا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، تكمن في تقديري في ذات المبدع نفسه، لا في اللغة التي يكتب بها، لأن الكتابة بلغة الآخر- حتى و إن كان هذا الأخير مستدمرا ومحتلا ومغتصبا للأرض – ليست خطيئة تستوجب التوبة، بالرغم من كل ما أثير وما يزال يثار حول حمولة اللغة للشحنة الأيديولوجية والفكرية والثقافية بداخلها، إنه أدب جزائري الروح والتوجه والاهتمامات والانتماء والهوية، إنه لا يستمد هويته من حسه الوطني فحسب، وإنما أيضا، من بعده القومي والحضاري، الذي ثار ثقافيا في سبيله، من أجل الحفاظ عليه من التلاشي والطمس.

والشيء الذي يجب التأكيد عليه، من خلال هذه الورقة البحثية في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، هو ضرورة التركيز على الاهتمام بترجمة هذه الأعمال الأدبية، خاصة ما تعلق منها، بتلك الواقعة زمنيا بين الحربين، على أن تتبوأ هذه المهمة، النخبة الأدبية المغاربية والجزائرية منها بصورة خاصة، لأنها الأكثر تأهيلا، والأقرب ثقافيا لهذه اللغة، ولأن ترجمات بعض الشوام(سوريين و لبنانيين) لهذه الأعمال – وهم مشكورين على ذلك – ترجمات أوقعتنا في الكثير من المطبات والمزالق، وعليه أصبح لزاما علينا – نحن الجزائريين المشتغلين في مجال الأدب – تفعيل العمل الترجمي بإتجاه هذه التيمة، وكذا مختلف الإبداعات الأدبية العالمية، وأن نتجنب الكتابة والقراءة بالوكالة.

هوامش:

[1]. بعلبكي رمزي منير وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي : إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ط1 المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان،2013، ص233.

[2].Bensaad Nizar,écrire dans la langue de l'autre : risques et enjeux, revue de littérature comparée, 3/2008,np 289-298.ترجمة الباحث

[3]. عبد السلام المسدي،الهوية العربية والأمن القومي،ط1،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،2014،ص81.

4. أمين معلوف، الهويات القاتلة،تر:نبيل محسن، ط1،ورد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، 1999،ص16.

5.Tayeb bouderbala,pluralité langagière et diversité culturelle ,
مجلة دراساتفي الترجمة وتحليل الخطاب، أفريل 2016،العدد01،ص7. ترجمة الباحث.

6. نور سلمان، الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر، الثقافة و الثورة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص46.

7. Abdennacer ghedjiba,la femme dans la littérature algérienne d'expression française,sous representation ou sur representation
دراسات في الترجمة و تحليل الخطاب،أفريل2016، العدد01، ص14.ترجمة الباحث.

8.Abdennacer ghedjiba,la femme dans la littérature algérienne d'expression française,sous representation ou sur representation,OP.CIT,P:14 ترجمة الباحث.

9. عبدالله الركيبي،الفرنكوفونية مشرقا ومغربا، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر،1993، ص88.

10.Jacqueline Arnaud, la littérature maghrébine de langue française,publisud, France, 1986, p:119.ترجمة الباحث

11. أبو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرحلة،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1983، ص176.

12.Jean déjeux ,situation de la literature maghrébine de languefrançaise,Alger,1ère éd,opu,1982,p.184.ترجمة الباحث

13.Charles bonn, le roman algérien de langue française, l'Harmattan, Paris, France, 1985, p: 7..ترجمة الباحث

14. محمد غنيمي هلال،الأدب لمقارن،ط3،دار العودة،بيروت،لبنان،1983،ص9.

15. باجو دانيال هنري،الأدب العام والمقارن،تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب،دمشق،سوريا،ص64.